(٧) (مازال بصفاته قديماً قبل خلقه)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال-رحمه الله- (**مازال بصفاته قديماً قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً**) يجب علينا أن نعتقد أن ربنا سبحانه وبحمده لم يزل متصفاً بصفات الكمال ونعوت الجلال وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى وأن أسمائه قد سمى به نفسه، فالإمام الدارمي -رحمه الله- استهل كتابه في الرد على بشر بن الريسي في تقرير هذه الحقيقة وهي أن أسماء الله تعالى هو الذي سمى بها نفسه وليس الناس سموه بها كما زعمت الجهمية.

فإن الجهمية تزعم بأن الناس هم الذين اخترعوا لله الأسماء وأضافوها إليه ورد عليهم هذا رداً قوياً وأنكر عليهم هذا الزعم فالله سبحانه وتعالى لم تزل له الأسماء الحسنى والصفات العلى فربنا له الصفات أزلاً وأبداً، يعني أزلاً من حيث الابتداء وأبداً من حيث الانتهاء.

وهذا يتعلق بصفاته الذاتية وصفاته الفعلية فلا يجوز أن يعتقد أحدٌ أن الله تعالى اتصف بوصفٍ بعد أ لم يكن متصفاً به لا يجوز أن يعتقد أحدٌ أن الله تعالى اتصف بصفةٍ لم يكن متصفاً بها بل طرأت عليه، **لماذا؟**

لأن هذا يقتضي أنه قبل اتصافه بهذه الصفة لم يكن متصفاً بالكمال إذ جميع صفاته صفات كمال فلأجل ذا قلنا أنه لابد أن نعتقد بأن جميع صفات الله سبحانه وتعالى موصوفٌ بها سبحانه وتعالى منذ الأزل وهي دائمةٌ باقيةٌ إلى الأبد وما يدعيه ويزعمه المتكلمون من نفي حلول الحوادث ويتوصلون به أو يريدون أن يتوصلوا به إلى إنكار الصفات الفعلية غير مسلمٍ لهم.

فإن المتكلمين من المعتزلة وغيرهم من الصفاتية كالأشاعرة وغيرهم ينكرون الصفات الفعلية ويتوهمون أن إثبات الصفات الفعلية كالاستواء والنزول والضحك والعجب وغير ذلك أنه يقتضي حدوثاً وإضافة وصفٍ إلى الله عز وجل لم يكن متصفاً به فلذلك يفزعون إلى تأويلها بعد إنكارها.

ونقول أن هذا الحدوث المتعلق بمشيئة الله عز وجل غير ممتنع سواءً سميناه حدوثاً كما سماه القران {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء/٢] وفي الآية الأخرى { مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ} [الشعراء/٥] ، فهذا الحدوث ليس حدوثاً يقتضي نقصاً وإنما هو بمعنى التجدد، فإن نوع الصفة قديم ولكن أحداها تتجدد ونظير هذا في معقول الناس أنك إذا تكلمت بالكلام لا يقال حدث له الكلام لأنك لم تزل متكلماً وإنما تجدد لك الكلام.

متى يقال حدث الكلام؟

لو كان مصاباً بخرص ثم نطق فيقال حينئذ حدث الكلام، أما أن يحدث بمعنى يتجدد فإن هذا لا يسمى

هذه المادة لم تراجع على الشيخ - حفظه الله -

حدوثاً بالمعنى المذموم.

كذلك الكتاب حينما يكتب الإنسان كتابةً لا يقال إنه حدثت له الكتابة لأنه لم يزل كاتباً وإنما تجدد له ذلك، فما يضيفه الرب سبحانه وتعالى إلى نفسه من الافعال فإنما هو من باب التجدد المتعلق بمشيئته وحكمته وهذا لا يدل على نقص بل هو في الواقع عين الكمال.

فإن الذي يفعل ما شاء متى شاء أكمل من الذي لا يفعل، ولهذا سمى الرب نفسه فعالاً، فننتبه إلى هذه الشبهة التي يلبس بها نفاة الصفات من المتكلمين في إنكار الصفات الفعلية، فيزعمون بأن نفي حلول الحوادث برب سبحانه وتعالى يقتضي نفي النزول والاستواء والعجب والضحك إلى آخره.

فنقول رويداً رويداً ما مرادكم بقولكم نفي حلول الحوادث إن أردتم بقولكم نفي حلول الحوادث أنه لا يحل في ذاته شيءٌ من مخلوقاته فنعم وحيهلاً، فالله سبحانه وتعالى لا يحل في ذاته شيءٌ من مخلوقاته كذلك ايضاً إن أردتم أن الله سبحانه وتعالى لا يكتسب وصفاً لم يكن قد اتصف به من قبل فنعم وحيهلاً، فالله سبحانه وتعالى كاملٌ بأسمائه وصفاته لم يحدث له شيءٌ بعد ألم يكن له، هذا المعنى معنىً مسلم، لكن إن أردتم بقولكم نفي حلول الحوادث نفي الصفات الفعلية الاختيارية من أنه سبحانه وتعالى يفعل متى شاء كيف شاء إذا شاء فهذا لا يسلم لكم لأنه مصادمٌ للنصوص الصريحة المتواترة في الكتاب والسنة من أنه سبحانه وتعالى قد استوى وينزل ويضحك ويعجب ويفرح ويجيء ويأتي وغير ذلك فأين تذهبون .

فهذا الحدوث الذي تسمونه حدوثاً لو جاريناكم وتنزلنا معكم في المقال فإنه حدوثٌ غير ممتنع ولا يدل على نقص بأي وجه من الوجوه بل في الحقيقة يدل على الكمال، وإنما الذم في إثبات حادثٍ في ذاته تعالى سبحانه وتعالى أو إثبات وصفٍ لم يكن قد اتصف به هذا ننزه الله تعالى عنه.

فلهذا كان دوماً التفصيل المجمل وبيان المجمل يرفع الالتباس ثم لاحظوا أن هذه الجملة التي يلوحون بها دوماً على مخالفيهم نفي حدوث الحوادث لم ترد في الكتاب ولا في السنة وإنما نحتوها هم على هذه الصياغة فيقابلون بها السني ويقولون أليس الله منزهاً عن نفي حلول الحوادث؟.

فربما شده أول ما ألقيت عليه فسلم لهم فتوصلوا بها إلى نفي الصفات الفعلية فحين إذٍ يجب الصيرورة إلى التفصيل والبيان بدلاً من الإجمال.

ثم اعلموا أن للمتكلمين في هذا الباب "أي ما يتعلق بعلاقة الصفات بذات الله سبحانه وتعالى" عبارات وكلماتٌ مظلمة ليست كلمات قرآنية ولا نبوية ولا أثرية لكنها أغلوطات سماها ابن جرير الطبري –رحمه الله– في رسالته صريح السنة حماقات هكذا، قال هذه من حماقات المتكلمين، مثلاً من المباحث التي يذكرونها هل الصفة

زائدةٌ على الذات أم لا؟ أو يعبرون بطريقةٍ أخرى وهي هل الصفة غير الذات أم هي هي؟ وأحياناً يقولون هل الصفة عين الموصوف أو غير الموصوف؟ وأحياناً يقولون هل الاسم عين المسمى أم غيره؟

والحق في جميع هذه المسائل التفصيل والبيان؛ لأن إطلاق القول بالنفي أو الإثبات يفضي إلى لبس كيف ذلك؟

نقول بالذات التي تعبرون بها ذات مجردة عن الصفات قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا شيءٌ غير صحيح، لا يمكن أن توجد ذات منفصلة عن الصفات هذا أمرٌ يفرضه الذهن لكن لا وجود له في الخارج والذهن قد يفهم الشيء المحال الذهن ممكن أن يتصور أشياء ممتنعة بمعنى أنه لا يمكن أن توجد في الواقع.

فلذلك نقول إن أردتم بالذات ذاتاً مجردة منفصلة عن الصفات فهذه لا وجود لها إنما هو أمرٌ يفرضه الذهن لا وجود له في الخارج وإن أريد أن الصفات زائدةٌ على الذات **بمعنى أن الصفات معنىً يقوم بالذات فهذا حق، كيف ذلك؟**

نقول الله سبحانه وتعالى له ذاتٌ كريمةٌ شريفة تقوم بها صفات لا أن الصفات منفصلةٌ عنها أو غيرها لأن لفظ الغير لفظٌ مجمل قد تكون هذه المغايرة مغايرة لفظية بمعنى أن الذات تدل على الكينونة والصفات تدل على معاني أخر فهذان الأمران لا يتصور انفصالهما وبيان ذلك أن المخلوقات صفاتها تقوم في ذواتها ولا يلزم من ذلك انفصال فلو أقمت شخصاً وطلبت من الحاضرين أن يصفوه لقال أحدهم هو طويل وقال آخر هو أبيض البشرة وقال ثالث قوي البنية وقال رابع كريم وقال خامس شجاع وهكذا.

ولربما ذكرنا عشرات الأوصاف وهي ذاتٌ واحدة، وهل هذه الأوصاف تقف إلى جواره وجانبه وتصطف معه أم أنها أعراضٌ قائمةٌ فيه؟ أعراضٌ قائمةٌ فيه.

إذاً لا موجب لهذا الغط وهذا الشغب بل يقال أن صفاته سبحانه وبحمده قائمةٌ في ذاته وليست منفصلةً عنه فلا يقال الله وصفاته بل يقال الله بصفاته؛ لأن العطف يقتضي المغايرة فلهذا أنكر الإمام أحمد عطف الصفة على الذات وعبر يعني قال بعلمه بسمعه ببصره ونحو ذلك فهي قائمةٌ في ذاته ليست منفصلةٌ عنه.

إذاً هذه المباحث التي يطرحها المتكلمون يجب فيها البيان و التفصيل ولا ينساق الإنسان إلى احد الأمرين لماذا؟ لأنه لو قيل إن الصفات غير الذات ماذا سينشأ عن ذلك؟ سينشأ عن ذلك أن تقول المعتزلة هذا دليلٌ على أن الصفات مخلوقة لأنه القديم واحد فما سوى القديم مخلوق وبالتالي كلامه مخلوق والقرآن مخلوق ونحو ذلك، يتوصلون بها إلى إنكار صفات الباري سبحانه وتعالى أو يجعلونها هي ذاته ذات الباري سبحانه وتعالى فيؤدي ذلك إلى تعطيل الصفة بمعنى أنهم يجعلون الصفات بمنزلة الأعلام المحضة فلا فرق عندهم بين سميعٍ وبصيرٍ وعليمٍ وقديرٍ ،

لأن السميع عندهم لا يتضمن سمعاً والبصير لا يتضمن بصراً والقدير لا يتضمن قدرةً إلى آخره، فلهذا نقول الله بصفاته ولا نقول الله وصفاته.

ثم إن المؤلف قال –رحمه الله – (ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداث البرية استفاد اسم البارئ) لاشك أن ربنا سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال ومنها الخلق، فليس خلقه لهذا الخلق نشأ عنه اسم الخالق ولا احداثه للبريات استفاد منه أو نشأ عنه اسم البارئ، وذلك انه سبحانه وتعالى لم يزل خلاقاً، لم يزل فعالاً، وهذا يدخلنا في مسألة مشهورة عند العلماء خاض فيها الناس وهي مسألة تسلسل الحوادث وهي من المسائل الغامضة في باب الاعتقاد ولكنها بإذن الله تعالى تتضح.

فاعلموا أن للناس في مسألة تسلسل الحوادث ما المقصود بالحوادث؟ الحوادث يعني الموجودات أن لهم في ذلك ثلاثة أقوال: فمنهم من منع التسلسل في الماضي والمستقبل، ومنهم من منع التسلسل في الماضي وأثبته في المستقبل، ومنهم من قال بالتسلسل أثبت في الماضي وفي المستقبل، ولا يوجد قسمٌ رابع يعني لا يوجد قسم يقول بالتسلسل في الماضي وعدمه في المستقبل هذا ليس له قائل،نعود عليها بشيءٍ من البيان.

منهم من منع التسلسل في الماضي والمستقبل وهؤلاء هم الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة كأبي الهذيل العلاف كيف منعوا التسلسل في الماضي؟

قالوا: إن هذه الموجودات لها حد وابتداء وأنه أتى على الله حينٌ أو حالٌ لم يكن خلاقاً بل ولا قادر، ثم بعد ذلك خلق وقدر، كما أنه في المستقبل لابد أن يكون لها منتهى فلا تتسلسل في المستقبل، هذه المقالة مقالة الجهمية.

يعني يقولون يجب أن يكون للحوادث مبدأ ويمتنع وجود حوادث لا أول لها فمقتضى قولهم أنه يمتنع أن يكون الله عز وجل لم يزل فعالاً إذا كان وجد في تصويرهم وحين ليس ثم حوادث فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكن فاعلاً خالقاً هذا معناه، ومقتضى ذلك أنه يمتنع أن يكون قادراً لماذا؟

لأن القدرة على الممتنع ممتنعة إذا قالوا يمتنع أنه يوجد حوادث متسلسلة في الأزل إذاً معنى ذلك أن يكون فاعلاً ويمتنع أن يكون قادراً، وهذا لازمٌ لهم لا محالة، هذا مذهب الجهمية.

المذهب الثاني مذهب المتكلمين من الأشاعرة ومن وافقهم منعوا التسلسل في الماضي يعني بمعنى أنهم وافقوا الجهمية على أنه قد أتى حينٌ لم يكن ثم شيءٌ حادث، وأن الله سبحانه وتعالى لم يكن فاعلاً ومقتضى ذلك ألا يكون قادراً لكن في المستقبل لما نظروا إلى دوام أهل الجنة ودوام أهل النار وخلود اهل الجنة وخلود أهل النار قالوا إن التسلسل مستمر فإن الله لا يزال فعالاً قادراً في المستقبل فاختلف كلامهم بين الماضي والمستقبل.

أما أهل السنة فقد قالوا بالتسلسل في الماضي وفي المستقبل، كيف؟

قالوا لم يزل الله سبحانه وتعالى فعّالاً خلاقاً مريداً قادراً لكن –وهذا هو بيت القصيد– هذا القدم لا يتعلق بآحاد الحوادث وإنما بنوعها.

فليس معنى ذلك أن كل حادث متناهٍ في القدم لا أول له، لا هذا وصف الرب، الرب سبحانه هو الأول الذي ليس قبله شيء لكنه سبحانه لم يزل يخلق ويفني فهو لم يزل خلاقاً ولم يزل فعالاً لأنه لم يزل سبحانه وتعالى متكلماً مريداً وقوله لشيء كن فيكون .

فهذا كمالٌ مطلق لله عز وجل، لا يجوز أن نعطل الله سبحانه وتعالى من هذا الوصف، فمعنى ذلك أن الحودث متناهية في القدم لا لآحادها ولكن بنوعها، كذلك في المستقبل لا يزال الله سبحانه وتعالى خلاقاً فعالاً متكلماً مريداً سبحانه وبحمده وهذا التسلسل في المستقبل لا يقتضي أن يكون آحاد الحوادث والمخلوقات له صفة الديمومة المطلقة التي له سبحانه وبحمده فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما فسر الأسماء الأربعة قال: (اللهم الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء) هذا المذهب هو مذهب أئمة الحديث وأهل السنة وهو إثبات التسلسل في الماضي وإثبات التسلسل في المستقبل ومقتضاه أنه سبحانه وبحمده فعّالٌ لما يريد كما قال عن نفسه في سورة البروج {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [البروج/١٦] فهو سبحانه وبحمده لم يزل ولا يزال فعالاً وهو سبحانه وبحمده لم يزل ولا يزال قادراً خلاقاً هذا هو مبدأ أهل السنة.

فتحصل إذاً ثلاثة أقوال: قول الجهمية الذين منعوا تسلسل الماضي والمستقبل، وقول المتكلمين الذين منعوا التسلسل في الماضي وأثبتوه في المستقبل، وقول أهل السنة والجماعة الذين أثبتوا التسلسل في الماضي وفي المستقبل، وفرقٌ بين مقالة أهل السنة والجماعة ومقالة الفلاسفة الملاحدة؛ لأن الفلاسفة الملاحدة يقولون بقدم العالم وخلود العالم وليست هذه مقالة أهل السنة والجماعة، حتى أن بعض من لم يفهم كلام شيخ الإسلام بن تيمية –رحمه الله– نبزه بهذا وقالوا إنه وافق الفلاسفة في القول بقدم العالم وحاشاه، لكن هذا من التجني والظلم، فإن الفلاسفة يزعمون قدم الخلق وخلود الخلق ولعلكم تعرفون النظرية الفيزيائية المشهورة المادة لا تفنى ولا تستحدث هذه نظريةٌ اجتهادية المادة لا تفنى ولا تستحدث هذا هو قول الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم وخلود العالم لكن شتان بينها وبين مقالة أهل السنة فإن أهل السنة لا يثبتون ذلك لآحاد وجواهر الحوادث والمخلوقات وإنما لجنسها ونوعها فقط وهذا فرق ما بين الأمرين.

طيب فإن قال قائل: فما تصنعون بالحديث الصحيح لما جاء أهل اليمن إلى النبي وقالوا: جئنا نتفقه في الدين فأخبرنا عن أول هذا الأمر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (**كان الله ولم يكن شيءٌ قبله**) وفي رواية

(معه) وفي رواية(غيره).

هذا يدل على أن للحوادث مبدأ وأنتم قد قلتم أن الحوادث متسلسلة في الماضي فالجواب عن هذا يقال: أولاً: هذه الروايات الثلاث رواية قبله، ومعه، وغيره، الثابت منها هو رواية (قبله) لأنها مؤيدة بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء) ولا ريب أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث هذا الحديث مرةً واحدة، فلا يمكن أن تثبت كل الألفاظ قبله، ومعه، وغيره، لا يمكن أن تثبت جميعها لابد أنه قال أحدها، فإذا نظرنا وجدنا لقوله (قبله) شاهداً وهو قوله (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء) فتقدم هذه الرواية ولا يلتفت لرواية(معه) أو (غيره) ثم إنا نقول إن السائلين إنما أرادوا العالم المشهود وليس جميع خلق الله عز وجل؛ لأنهم قالوا: نسألك عن هذا الأمر وأشاروا إليه أي هذا الأمر الذي نعيشه وهو خلق السماوات والأرض فحدثهم النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا العالم المشهود الذي نبصره بأعيننا وليس عن كل خلق الله عز وجل، فلا ريب أن الله سبحانه وتعالى له خلقٌ لا نعلمه وإنما كان سؤالهم منصباً على هذا العالم المشهود وهو خلق السماوات والأرض ولهذا أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بخلق السماوات والأرض وأنه كتب في الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض.

فدل على أن محل السؤال والجواب هو العالم المشهود ولا ينفي وجود خلق له سبحانه وتعالى قبل ذلك، فلا يكون في هذا حجةً لمن أراد أن يبطل التسلسل في الماضي.

على كل حال هذه مسألة من المسائل كما قلت لكم التي يكتنفها بعض الغموض ولعلكم ترجعون إليها في شرح ابن أبي العز –رحمه الله– في عقيدة الطحاوي لتتأملوها أكثر فإنها من المسائل التي ينبغي لطالب علمٍ متخصص أن يحسن تصورها.

وصلى الله على نبينا محمد ..